الشخصية اليهودية في الرواية الصهيونية المعاصرة

يقلم غسان كنفاني

حين يتعامل كاتب الرواية الصهيونية (١) مع ابطاله يقع ، حتما ، في فخ منصوب مسبقا ، وما يلبث هذا الفخ ان يضحي شغل الابطال الشاغل سواء بمعالجته مباشرة او بمحاولة الالتفاف حوله . ومهما كانت براعة المؤلف في تغييب اهمية هذا الفخ فانه سوف يبقى ابرز علامة في الرواية ، وسوف تبرز ضرورة مواجهته مباشرة وراء كل موقف حاسم او انعطاف جذري . ولذلك كله فانه يضحي، دائما ومن جديد ، محور المواقف الانية والدائمة والزاوية الانسانية او الخلقية للمشهد باكمله .

هذا الفخ هو ، بكل بساطة ، وجوب تقديم المبرر المقنع الذي حمل البطل اليهودي على المجيء الى فلسطين كجزء من خطة سياسية ترمي الى تكريسها دولة يهودية، وسوف نسارع الى القول بان التبرير التقليدي الذي يستعمله مناطقة الصهيونيين لا يلائم اي عمل روائي جاد، فانه من المضحك حتما ان يقول بطل رواية يهودي انه انما جاء الى فلسطين لان اجداده احتلوها قبل اكثر من ثلاثة آلاف عام ولفترة وجيزة ، وما من شك في ان هذا البطل مطالب بتقديم تبرير اكثر معقولية ، لا لسبب قدومه الى فلسطين ، فقط ، بل السبب الذي من اجله رفض مبدأ الذوبان في المجتمعات التي عاش فيها عشرات من القرون.

اذا وقفنا عند هذه النقطة فقد يكون بوسعنا ان نلتقط تفسيرا لظاهرة البطولية المبالغ فيه في الروايات الصهيونية ، عقدة التفوق ـ اذا جاز لنا التعبير ، التي كثيرا ما تنفرد ، مباشرة او غير مباشرة ، في تقديم التبرير الضائع والتي سوف تستمر رديفا للبطل اليهودي في الرواية الصهيونية ، تنمو نموا هائلا ثم تنحسر ـ نتيجة للضغوط التي سببتها انحسارات النظريات العرقية بعد انهزام النازية ـ لتبزغ من جديد ، بشكل جديد ، في الروايات الصهيونية المعاصرة .. ان الخيط الذي ينظم أبطال الروايات الصهيونية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين جاء ليرسم غشاوة امام التساؤل الذي تطرحه « عودة » البطل الصهيوني الى فلسطين ، كأنما يحاول العمل الروائي الصهيوني ان يعتبر ان التفوق الفكري والخلقي والبدني للبطل اليهودي هو مبرره في اقامة دولة ..

ولكن هذا التبرير يبقى ناقصا : اذا كان التفوق اليهودي هو مبرر البطل الروائي الصهيوني في انشاء دولة يستحقها وتستحقه فما هي مبرراته « لاقتلاع » شعب اخر في سبيل السيطرة على مكانه ؟ ان هذا السؤال يقود الى ممر نازي خطر .. ورغم ذلك فقد استطاعت الروايات التي الفت قبل عام ١٩٤٨ ان تدور حوله ، ولكن الروايات التي كتبت بعد ١٩٤٨ كان عليها ان تواجهه، ومن سوء حظها انها كلفت « ليون اوريس » بهذه المواجهة في « اكسودس » ..

ـ ١ ـ

« الارض الجديدة القديمة » (٢) رواية يوتوبية كتبها تيودور هرتزل ، المفكر الصهيوني المعروف في اواسط القرن التاسع عشر تقريبا ، وتخيل فيها فلسطين كدولة يهودية عام ١٩٢٣ ..

الا ان المشاكل التي كان على الرواية ان تواجهها تخطتها بكل سطحية وغباء ، ذلك انه لم يخطر على بال هرتزل وهو يتنبأ عن احوال فلسطين بعد حوالي ٧٠ عاما من كتابة « الارض الجديدة القديمة » لم يخطر على باله شيء اسمه قومية ، وبقي يعتقد بان فلسطين سوف تبقى جزءا من الامبراطورية العثمانية ، ولم يفكر قط بان اللغة العبرية سوف تصلح لتكون لغة الدولة ولذلك فقد جعل يهود فلسطين يتبنون ـ في روايته ـ اللغة الانكليزية ، «لم تكن لديه فكرة واضحة عن فلسطين كبلد عاش فيه العرب قرونا وما زالوا يعيشون » (٣) ورغم ذلك فان العرب في الرواية قد اعتبروا قدوم اليهود الى فلسطين بركة ونعمة، فالاراضي قد ارتفع ثمنها ورشيد بك (شخصية عربية في الرواية) قد باع ارضه مثلما فعل الجميع ليشاركوا في بناء المجتمع الجديد .. (٤) واليهود هم ، بايجاز ، سبب الخير العميم ولولاهم لبقي القديم على قدمه والسيء على سوئه ولواصل العرب في فلسطين حياة الجهل والظلام..

على ان رواية هرتزل ، وان حاولت الدوران حول الفخ ببراعة (لا يهمنا ان نعرف فيما اذا كان منشؤها جهل

---

(١) نعني بالرواية الصهيونية ، خلال هذه الدراسة ، الرواية التي يتعامل ابطالها بشكل مباشر او غير مباشر مع الاهداف السياسية للحركة الصهيونية التي ولدت بمؤتمر بال في نهاية القرن التاسع عشر بغض النظر عما اذا كانت من نتائج الصهيونية السياسية او من مسبباتها .

(٢) ـ « ALT - NEULAND »

(٣) ـ NEWOUTLOOK No 7 (29)

(٤) ـ NEWOUTLOOK No 8 (39)

هرتزل ، كما يقول النقاد ، او ذكاءه وبعد نظره) فانها لم تنج نهائيا من اعراض السقوط : فاليهود الذين سيأتون لانشاء دولة في فلسطين لن يعمروا الشرق الاوسط فقط، بل افريقيا ايضا ، وهم ـ يجب ان لا ننسى ذلك ـ **الحل الوحيد** لظلام المنطقة ..

ولكن الفخ الذي دار حوله هرتزل سقط فيه الروائي الانكليزي ، رئيس الوزارة البريطانية ، بنيامين دزرائيلي في كتابه « دافيد آلروي » الذي نشره عام ١٨٣٣ ... وبالرغم من عدم توضح افكار صهيونية حاسمة في هذه الزاوية الا انها كانت ذات ضرورة قصوى كعمل تمهيدي ، ففيها يسجل دزرائيلي آراء عرقية متطرفة تذكر بالنظريات العرقية التي ستنمو في المانيا بعد مئة سنة من ذلك التاريخ، ويكرس دزرائيلي فكرة نقاء العرق ، وتفوق العبريين، ويجعل من سيدونيا ، بطلة الرواية ، بوقا لجمل من هذا الطراز يحفل بها الكتاب .. ولقد برز هذا التشدق العرقي بروزا واضحا دفع الى مناقشات حادة شهدتها الصحافة البريطانية آيامذاك ، ويهمنا ممن شاركوا في تلك المناقشات جورج اليوت ، التي كتبت عام ١٨٤٨ تنتقد عرقية دزرائيلي بعنف ، وما لبثت ، عام ١٨٦٧ ، ان دفعت للنشر روايتها « دايفيل ديروندا » التي « نصبت اليهودي الطيب في الادب الانكليزي ، وصار بوسعها ان تزيد من الوثائق الميالة للصهيونية » (٥) ولكنها تهربت ببراعة من الفخ التقليدي ، وبالرغم من شكلية الحل الذي ارتأته بقولها ان معنى الشعب المختار هو كونه قد اختير ليخدم الشعوب الاخرى ، الا ان ابطال الرواية اليهود كرروا نموذج المتفوق، واضافت جورج اليوت الى تفوقهم الفكري اسطورة نبوتهم السياسية فجعلت الرواية ذات هدف سياسي مباشر (٦).

ـ ٢ ـ

في نهاية القرن التاسع عشر بدات الهجرة اليهودية الى فلسطين تتخذ شكلها العملي ، وتنشأ ، في هذه الفترة، طبقة من الكتاب اليهود نفذوا اعمالهم الادبية فوق ارض فلسطين ، الا ان شخصية « الرائد » (٧) ما لبث ان لبسها ابطال يهود من هذه الفترة في الاعمال الروائية اليهودية التالية ، وانه من الغريب حقا ان الرواية اليهودية ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، والتي كتبت على ارض فلسطين ذاتها لم تذكر شيئا عن هذا « الرائد » ... ان دافيد شمعوني ، مثلا ، الذي وصل الى ارض فلسطين عام ١٩٠٩ يكتب عن رجل اسمه كاتريل يكره ان يسمى بانه رائد وهو يحتج على الدعايات التي تحاول شحنه بالاعتقاد بانه بطل وبانه ، بمجيئه الى فلسطين ، قد قام بتضحية كبرى (٨) وكذلك الامر مع جاكوب شتاينبرغ (١٨٨٦ ـ ١٩٤٨) عاش شبابه كله في فلسطين ، ورغم ذلك فانه لم يذكرها في شعره ، انذاك ، الا لماما ، وصاموئيل جوزيف اغنون (١٨٨٨ ـ) جاء الى فلسطين وهو في العشرين من عمره ولم يعكسها في قصصه المبكرة على الاطلاق ... وكذلك الامر مع فيلسوف اليهود آرون دافيد غوردون (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢) الذي لا يعتقد بان اليهود القادمين الى

(٥) ـ من شيلوك لسفنغالي ، ص ١٦٢ .

(٦) ـ ترجمت الرواية الى العبرية ونشأ معها جيل من المفكرين اليهود وفي ١٩٤٨ اطلق اسم جورج اليوت على شارع في تل ابيب.

(٧) ـ PIONEER

(٨) ادب اسرائيل الحديثة ـ روبن وولنرود ـ ص ٥٠ .

كوستلر — يال دايان

فلسطين هم ضحايا او رواد بمعنى ابطال .. وهكذا نرى بان شخصية « الرائد البطل » هي من صنع الروائيين اللاحقين ، ويبدو روبن وولنرود ، أستاذ الادب العبري في جامعة بروكلن ، يبدو مضحكا حين يقرر ان غياب «البطل الرائد » في اعمال « الادباء اليهود الرواد » الروائية والشعرية ، وانعدام سيرهم وسير المشاق البطولية التي تغلبوا عليها ، كل ذلك مرده الى ان اؤلئك الرواد لم يشاهدوا فلسطين الحقيقية حين وصولهم ، بل فلسطين التوراتية الخيالية ! (٩) والواقع ان وولنرود مضطر لمثل هذا التبرير لان شخصية « اليهودي الرائد » سوف تحتل مكانا مرموقا على ايدي الروائيين الذين جاؤوا بعد « الرواد » وبنوا على اكتافهم شخصية اليهودي المتفوق ، مثلما حصل في اكسودس ، بشكل خاص ، وفي اعمال الكتاب اليهود الاوروبيين .

بعد مرور تلك الفترة بوسعنا ان نميز بطلا واحدا يعيش في ثلاث روايات صهيونية تشكل ، عمليا ، ثلاثية في منطق الزمن : الاولى هي رواية آرثر كوستلر (لصوص في الليل) التي كتبها حوالي عام ١٩٤٥ ، والثانية هي رواية « اكسودس » ، لليون اوريس ، التي نشرت عام ١٩٥٦ ولكنها ركزت على فترة زمنية تمتد بين ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨ تقريبا ، ثم رواية الكاتبة الشابة يائيل دايان « طوبى للخائفين » التي نشرت عام ١٩٦٠ والتي تناولت فترة ما بعد ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٠.

ـ ٣ ـ

آرثر كوستلر روائي بارع ، ولذلك فانه حريص على عدم السقوط في الفخ المنصوب امامه ، انه يشعر بالخطر شعورا يرافقه في كل فصول الرواية ، ولذلك فهو يحمل الموقف الحاسم لمنطق صحفي اميركي غاضب ، ويترك للبطل اليهودي (جوزيف) فرصة ابداء رأيه خلال مناقشاته لرفاقه اليهود وهكذا فان وجهة النظر اليهودية الصرفة

(٩) ادب اسرائيل الحديثة ـ روبن وولنرود ـ ص ٩ .

تبقى مختفية وراء منطق الصحفي الاميركي الغاضب. ولكن كوستلر لا يجد خيرا من ان يعرض وجهة النظر العربية على لسان فلاح ، اولا ، ثم على لسان كامل افندي ، المثقف البورجوازي ، ويبذل جهده ليجعل الاراء العربية آراء هزيلة عن طريق اسلوب الحديث والمعنى في آن واحد .. الا ان وجهة النظر العربية تواصل الحفاظ على منطقيتها بالرغم من كل شيء : « ما ينتجه الوادي كاف بالنسبة لنا .. نريد ان نعيش كما عاش آباؤنا ولسنا نريد نقودكم ولا تراكتوراتكم ولا اسمدتكم ولسنا نريد ـ ايضا ـ نساءكم اللواتي يزعج منظرهن العين !. » (١٠) وثمة ، ايضا ، موقف المثقف الانيق : « هذه بلدنا نحن ، هل تفهم ؟ لسنا نريد فضل الاجانب ولا دعمهم ، نريد ان نترك وشأننا ، هل تفهم ؟ ، نريد ان نعيش حياتنا ولسنا نريد اساتذة اجانب ولا اموالا اجنبية ولا عادات اجنبية ولا ابتسامات متنازلة ولا ضربات تلطيف فوق الكتف ولا عجرفة ولا نساء وقحات ذوات ارداف رجراجة ، لا نريد عسلهم ولا نريد لدغهم ، هل تفهم ؟ لا عسلهم ولا لدغهم ! » (١١).

ولكن كوستلر يحاول ان يرد الصاع لهذا المنطق كي يظهر الفرق ، فهو يترك الصحفي الاميركي يقول لكمال : « اوف ! كف الحديث عن بيتك ، في الخمسمئة سنة الاخيرة لم تكن الدار دارك ، بل دار الاتراك ! » (١٢) وكوستلر يعرف تماما ان هذا المنطق منطق سخيف ، ولذلك يحرص على اغراق القصة باوصاف ترمي الى اعطاء الصورة التي يريد : « وفي لحظة كرم ، قرر ان يشتري لابنه عيسى زوجة طيبة بغض النظر عن الثمن » ص ٢٧ ـ و « كل كبير عائلة (عربية في قرية معينة) كانت تتوجب رشوته على حدة ، ثم اخذت بصمات الـ ٥٦٣ فردا بما فيهم الاطفال والبهاليل » ص ١٤ ـ وبين ص ١٠٣ و ص ١٢٠ وصف لتقاليد قرية عربية بشكل يقصد اظهار مدى تأخرها ومأساتها الخلقية والمادية .. وفي ص ٣٤ ـ يقول الشاب اليهودي للكهل العربي : « هذه التلة لم تنتج منذ تركها اجدادنا ، لقد اهملتموها وتركتم مدارجها تنهار ، سوف ننظف التلة من الحجارة ونحضر تراكتورات وسمادا .. »

الا ان كوستلر يفضل ـ دائما ـ الابتعاد عن المواجهات المباشرة للمبررات التي دفعت اليهودي للقدوم الى فلسطين وبحث مواضيع تفصيلية قادرة على تضييع القضية الرئيسية ، فالمسألة ـ في لصوص في الليل ـ هي مسألة تبرير العنف ، واعطاء رخصة خلقية لعصابة آراغون زفاي ليومي لتقوم باعمالها الارهابية العنيفة ، ولا شك ان كوستلر يرغب في البرهنة بان العنف اليهودي هو مجرد ردة فعل منطقية للوحشية العربية والانكليزية (العرب والانكليز يقفان دائما الى جانب بعضهما في معظم الروايات الصهيونية) .

جوزف ، بكل لصوص في الليل ، شخصية محبوكة ببراعة : بالنسبة لكوستلر لم يكن من الضروري الباس جوزف ملابس البطولة الخارقة والتفوق النهائي لانه جعله يعيش في جو يهودي ، ولكن حين يقترب جوزيف من انسان عربي (او أي يهودي من اي عربي) فسرعان مايميل الميزان بشكل واضح ..

الشخصيات العربية التي قدمها كوستلر شخصيات مهزوزة معقدة سطحية بالرغم من انه حاول ان لايشير الى ذلك مباشرة ، ولكن ملاحقته لاي نموذج عربي يرمي الى اظهار خسته ، في النهاية ، او تفاهته ، وهو امر لايفعله حين يلاحق شخصية يهودية ،حتى لو كانت هذه الشخصية تتعلق بيهوديين مسلحين يخطفان مختار القرية الشيخ من داره ـ لغرض الانتقام ـ ويجزان عنقه في البرية وهو بلباس النوم ..

ورغم كل شيء فان كوستلر يبدو منطقيا امام اوريس في « اكسودس » ولا تبرهن هذه الجملة على « عدالة » كوستلر بل على « ظلم » اوريس المتناهي ، ففي الستمئة صفحة التي يلاحق فيها الابطال اليهود في اكسودس تنقسم الاشياء انقساما رهيبا مصنفة بين الابيض والاسود : تفوق يهودي ، خلقي وفكري وبدني ، نهائي ، وصغار عربي ، خلقي وفكري وبدني ، نهائي ايضا : الخير المطلق والصواب المطلق والكمال المطلق هو الجانب اليهودي ، أما الشر المطلق والخطأ المطلق والنقصان المطلق فهو الجانب العربي !..

دزرائيلي

انه من المحير حقا ان تحرز رواية اكسودس كل المجد الذي احرزته وهي نموذج هائل لفشل روائي يدعي التاريخية وتشويه للنموذج البشري الطبيعي ، وليس هذا الراي بجديد ، فجون كمشه يقول : « كنت قد سألت واحدا من اهم الممثلين الاسرائيليين في الولايات المتحدة عن اكسودس .. فأجاب بانه قد اجبر نفسه على قراءته ، لقد كان كتابا فظا مبتذلا ، ولكنه كتاب رائع بالنسبة لليهود الاميركيين .. » (١٣)

وبالرغم من ان كمشه يعتقد ـ في مقاله نفسه ـ بان نجاح اكسودس يرجع الى ان اوريس « اعطى الجمهور اليهودي في كافة طبقاته الصورة التي تاقوا اليها .. » فانه من الواضح ان تلك الصورة ، اليهودي ، هي مجرد تكريس روائي للنظرية العرقية النازية بشكلها المعكوس ، وقد يكون هذا بالذات ثمن نجاحها .

وعلى اي حال ، فالسؤال الرئيسي مازال واردا : ما هو المبرر الذي حمله البطل اليهودي للمجيء الى فلسطين ؟

هنالك أولا المبرر العكسي : « لو كان عرب فلسطين قد احبوا اراضيهم لما كان بوسع اي كان طردهم منها ... لقد كان لدى العرب قليل من الاشياء ليعيشوا من اجلها، واقل من ذلك ليقاتلوا في سبيله .. » ص ٥٨٨ ـ وهنالك ثانيا المبرر الايجابي : « تقف اسرائيل اليوم اداة جبارة وحيدة قادرة على اخراج الشعب العربي من العصور

(١٠) لصوص في الليل ـ ص ٣٤ (على لسان فلاح عجوز) .

(١١) لصوص في الليل ـ ص ١٧٧ ـ على لسان كمال افندي.

(١٢) لصوص في الليل ـ ص ١٧٥ .

(١٣) جون كمشه ، جويش اوبزرفر ، العدد ١٧ ، مجلد ١٠ (٢٧ـ ٤ ـ ١٩٦٢) .

المظلمة .. » ص ٥٨٨ – ان كلمة (وحيدة) هنا لم تقع مصادفة ، وكل شيء في الرواية تعمد ان يصل اليها ، بل ان البطل العربي الوحيد « الطيب » في الرواية يرى « ان اليهود هم الخلاص الاوحد للشعب العربي .. فهم الوحيدون الذين جابوا الضوء الى هذا الجزء من العالم في الالف سنة الاخيرة .. » – ص ٢٧٩ – ولكن الامر لايقف هنا ، فان صفحات طويلة في اكسودس مخصصة للحديث عن اليهود ضحايا الاضطهاد النازي ، وفي غمرة الجو الفاجع – المبالغ بفجيعته – يصب اوريس عيون قرائه على قدوم اليهود الى فلسطين قافزا من فوق وقفة منطقية .. وفي فلسطين ينقسم العالم الى ابيض واسود فالعرب هناك قواويد يبيع الصبي منهم اخته (ص٣٥٧) والاطفال العرب – عكس اليهود – يعيشون بلا هدف (ص٣٧١) واذا احب العربي يهودية فانه من الطبيعي ان تبصق بوجهه (ص٣٦٩) ويقاتل العرب والسكاكين في افواههم (ص٣٠١) ويبيعون المرأة بعدد من الجمال(ص٣٧٧) ويعطون نسوتهم للانكليز (ص٤٣٢) واذا قاتلوا فانما بتهديد بنادق قادتهم (ص٥١٨) والدكان العربية لم تكنس منذ عشر سنوات (ص٤٠٠) والرجال العرب لايعرفون غير اللغة العربية مع العلم بان الطفلة اليهودية تعرف الانجليزية والعبرية والدانمركية والفرنسية والالمانية (ص٤٠٠) اما اليهود فالامر يختلف معهم ، فانت لاتستطيع ان تجد يهوديا واحدا يعمل جاسوسا ولا يمكن ان تفعل شيئا لتخيفهم (ص١١٥) وهم ينتصرون في احدى المعارك بواسطة اذاعة اصوات العاب نارية في مكبرات الصوت ، فيهرب العرب (ص٥٣٥) والجندي اليهودي يشكل « بلا تردد اعلى مستوى ثقافي وعقلاني ومثالي لرجل تحت السلاح في العالم اجمع » (ص٣٠٥) وكان موندك قد ترأس حركة المقاومة البولندية – وهو يهودي – قبل ان يصير عمره ١٩ سنة (ص١٣٠) ويصبح يهوديا عمره ١٢ سنة اكبر مزور جوازات سفر في بولندا (ص ١٣٥) وهم حين يضطرون للجوء تحت الارض يواصلون تمارين الاوركسترا السيمفونية (ص٥٥٨) وبوسع الاطفال ان يقاتلوا اذا لزم الامر ويهزموا فرقة عربية (ص٥٦٠) ..الخ.

على أن آري بن كنعان بطل اكسودس الذي يشبه ابطال الافلام الاميركية المسلسلة « شازام وسوبرمان وطرزان معا » هو اكثر شخصيات الرواية بروزا ، ومما لاشك فيه انه مجرد امتداد منطقي لجوزيف ، بطل«لصوص في الليل » الذي بدأ بداءة تبشر بهذه النهاية .. ولكنه ، عمليا ، لايقدم اي تبرير « لعودته » الى فلسطين الا تفوقه الجسدي والذهني المبالغ فيه الى حدود مضحكة امام « قزمية » الانسان العربي المرافق لحيويته كي يظهر عجزه اكثر ايلاما ..

هل يحدث هذا لان الكاتب اليهودي « يفقد كثيرا من موضوعيته بسبب شعوره الكامل بهويته ومسؤولياتها .. » (١٤)ام لان « القرب الشديد من الاحداث والشخصيات يعطي كتاباته ... نوعا من المايوبيا ؟ » (١٥)

في الواقع أن هذا لايحدث بسبب « القرب الشديد من الاشياء » لان ذلك القرب حري بابراز تفاصيل الرقعة الضيقة التي يسمح القرب المبالغ فيه أن تقع في نطاق الرؤيا ، على ان هذه التفاصيل ، في طريقة رسم اوريس للشخصية اليهودية ، او الشخصية العربية ، مفقودة نهائيا

(١٤) – (١٥) ادب اسرائيل الحديثة – روبن وولنرود (ص٢).

.. ولكن ربما يحدث هذا بسبب الشعور المرضي – وليس الكامل – بالهوية ، الشعور الذي هو ، في ذاته نتاج لعقدة في الاساس .. المحاولة اليائسة لتغليب منطق دراماتيكي على حقائق الواقع البارد على هذه الدراماتيكية غير الواقعية تحمل الاكتفاء .

وهكذا فقد كان من المنطقي ان تصل الى الساحة كاتبه مثل يائيل دايان لتكتب « طوبى للخائفين » ، والواقع ان العنوان في ذاته يحمل جذور العقدة فهو يوحي بان الكتاب انما هو دفاع عن الخوف في « بلد » لايخاف فيه الناس من ايما شيء !

وفي « طوبى للخائفين » تحاول دايان ان تمحو اثر الرجل البطل القوي الصارم ، الا انها ، كنقطة بدء ، تعترف بامكان وجوده بل أن بطل « طوبى للخائفين » لايخاف وهي ترى ذلك منطقيا كنتاج للماضي ولكنها لاترغب فيه الان . وراء الشخصيات المسالمة الهادئة في « طوبى للخائفين » تلوح اشباح رجال قادرين على ان يكونوا ابطالا ساعة يشاؤون الا أن « صوت الضمير » في الكتاب يعتقد بان هذا الاوان ليس اوان البطولة .. « ولذلك فان البطل عند دايان هو نهاية لرحلة ابطال اكسودس » .

ثمة مشهد هام في طوبى للخائفين يصلح لاثبات ذلك الكلام بشكل مثالي : البطل نمرود يصعد الجبل الواقع على الحدود برغم كل المخاطر ، وعلى قمة ذلك الجبل يكتب في مذكراته : « صحت : من هو الاقوى ؟ اتعرف من اين اتى الصدى هذه المرة ؟ من الاردن ! من الايطاني ! من الطريق الى دمشق في الشمال ، ومن سقف السماء الواطي ! » – ص ١١٣ – ان الذي يستنتج من هذا الكلام – حتى دون أن نحمله على محمل رمزي – هو اقتناع البطل الكامل بمدى قدرته اللانهائية ، وطاقته غير البشرية وتفوقه المطلق ، اما المشهد الذي يليه مباشرة ، وهو قدرته على قتل رجل عربي وامتناعه عن ذلك لمجرد عدم رغبته ففيه الشيء الكثير من المعاني التي ترمي اليها المؤلفة في تحيتها للخوف والخائفين .

انه عالم مزدحم من الابطال الخرافيين والبطولات التي لاتصدق ، ورغم ذلك فان كل هذه الملاحم المتراكبة لم تنجح في حجب السؤال الاساسي الذي يطرحه القاريء الجاد على نفسه حين يمسك رواية صهيونية ليجد فيها مايفيد .. ✱

غسان كنفاني

✱ ملخص لفصل من كتاب يعده الكاتب عن الادب الصهيوني المعاصر.

تطلب « الاداب »

وكتب « دار الاداب »

في الجزائر

من مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ نهج عمر القامة